

وقال أحدهما : انظر • انظر • يا جربرت ! وحق العذراء ما أجملها من فتاة • فلم يزد صاحبه على أن قال : يا لهذا الجواد من مخلوق جميل ! •• دون أن يلتفت بوجهه • وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحظة • ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! •• وانطلقا وجربرت يقول : إن جوادا قط ، لا يماثل هذا الجواد •• « وهي حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة ، إذ قلة الاهتمام تورث الأزدراء • والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الأزدراء ، وإليك مثلا حادثة في الكتاب المتقدم ، يروى فيها « إن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بين Pepin تسأله معونة أهل^{١١} رين • فأصغى إليها الملك ، ثم استشاط غضبا ، ولطمها على أنفها بجمع يده • فستطت منه أربع قطرات من الدم ، وصاحت تقول : « شكرا لك • إن أرضاك هذا فأعطني من يدك لكمة أخرى حين تشاء •• « ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما تتكرر ، كأنها صيغة محفوظة وكأنما كانت اللطمة : بئمة اليد جزاء كل امرأة جسرت في عهد الفروسية على أن تواجه زوجها مشورة •• ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها عفو الساعة ، وكثيرا ما تزف إلى رجل لم تره قبل ذلك ، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري ، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع ، ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس مجنون بالحرب ، معطل الذكاء ، قد يكون في معظم الأحوال من الأميين ، عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة - أترى سيدة القصر إذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء ، أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ »

* * *

ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة ، إلى عصور الفروسية ، إلى ما بعدها من طلائع العهد الحديث ، ولما تبرح المرأة في منزلة مسفة ، لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية ••

« ففي سنة ١٧٩٠ بيعت امرأة في أسواق إنجلترا بثلثين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها • وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢ محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية المقاضاة •• وكان